المؤمنون وغير المؤمنين

يتردد كثيرا مصطلح (المسلمون وغير المسلمين) أثناء وصف بعض المثقفين والكتاب العرب!! في إشارة إلى التمييز بين الأميين من أمم الأعراب (العرب من المحيط إلى الخليج) والأميين (باقي الأمم) غيرالمنتسبين عقديا وإيمانيا بأمم اليهود والنصارى, يُطلق عليهم جُزافا (المسلمون)!! وبين أمم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليصفوهم ويطلقوا عليهم المصطلح (غير المسلمين)!!؟؟ وهذه الإطلاقات والمصطلحات غير القرآنية هي باطلة قرآنيا وباطلة شرعا.

أنيس محمد صالح □

سبق أن نشرت دراسة بعنوان (إطلاق مصطلح – غير المسلمين– على اليهود والنصارى.. باطل شرعاً)، ودراسة أخرى بعنوان (الفرق بين الإسلام والإيمان في القرآن الكريم) ودراسة أخرى بعنوان (العلاقة بين الأيمان والكفر في القرآن الكريم) .

وعلى الرغم من تبييننا وتوضيحنا وتأكيدنا من خلال الآيات القرآنية كقرينة ودليل وحجة وإثبات وبرهان, إلا إنه يبدو بوضوح إن هذه المصطلحات مازالت مُبهمة غير واضحة حتى يومنا هذا, وتتردد باستمرار دونما مراعاة لأهمية هذه اللغة القرآنية وانعكاسها سلبا على حياتنا اليومية, وإشكالية مفهوم المصطلحات القرآنية وما يترتب عليه من أحقاد وكراهيات بين الأمم والشعوب, وظلت العلاقة بين الإسلام والإيمان علاقة غير واضحة مُبهمة, نتيجة لما تم تعليمه لنا منذ نعومة أظفارنا حول تاريخ وكتب تراث محرف مزور!! وتعريف محرف مزور للإسلام من خلال كتب تفسيرات القرآن الكريم على أساس مذهبي وطائفي!! والغموض وعدم معرفتنا بالنتيجة للفرق بين الإسلام والإيمان!! ما أدى بالضرورة إلى هذا الخلط والغموض في إطلاقنا للمصطلحات القرآنية المُضللة جُزافا, ونجدها بوضوح شديد في كتابات كبار مثقفينا ومفكرينا القرآنيين حتى يومنا هذا للأسف الشديد.

لا يطلق مصطلح الإيمان أو الكفر إلا على الإنسان وحده فقط (رجلاً كان أم امرأة), بحيث نجد إن مصطلح الإسلام والذي فطر الله جل جلاله الناس جميعهم عليه, ومصطلح (الإسلام) يشمل الناس كلهم جميعهم دونما استثناء ضمن منظومة كبيرة لا متناهية, تقوم عليه (الإسلام) جميع خلق الله جل جلاله في السموات والأرض, وتقوم جميع الرسالات السماوية (التوراة الكريم, الإنجيل الكريم, القرآن الكريم) على الإسلام (التوحيد – عبادة واستعانة –) لله وحده لا شريك له, فسنجد إنه يُطلق عبثاً وجُزافاً (الإسلام) على الأميين من غير أمم أهل الكتاب, ويُستثنى منه (الإسلام) أمم اليهود والنصارى جهلا وتضليلاً وظلماً وعدواناً.

وقوله تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾{85} آل عمران

ومَن يبتغي غير الإسلام ديناً (شرائع ومناهج الله جل جلاله, رسالاته السماوية جميعها والقائمة على التوحيد) على ملة أبيهم إبراهيم (صلوات الله عليه) هو الذي سماهم المسلمون من قبل.

هذا الخطاب في الآية الكريمة أعلاه هو موجه للعالمين ولكافة الناس دونما استثناء يهودا كانوا أم نصارى أم أميون.

ونخلص إلى نتيجة مفادها إن الرُسُل والأنبياء جميعهم (دون تفريق بينهم) هم معنيون بالتكليف لتبليغ رسالات ربهم الأعلى, القائمة أساساً على الهُدى ونصرة الله والذكر الكثير وإسلام الوجه إليه وحده لا شريك له, رسولاً كان أو نبياً كان أو آل بين كان أو تشريعاً لغير الله كان أو مذهباً كان أو ولد... وهم كلهم جميعهم ميتون, ولا يجوز تعظيمهم أو تأليههم بعد موتهم, أو تقويلهم بعد موتهم وانقطاع الوحي عنهم !!! أو أي من آل بيوتهم ؟؟؟ ويبقى التعظيم والتأليه والهُدى والذكر والنصرة لوجه الله ذى الجلال والإكرام الحي القيوم الذي لا يموت ويسمع ويرى ويستجيب برحمته جل جلاله.

لقوله تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ {26} وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾{27} الرحمن

وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا {41} وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا {42} هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾{43} الأحزاب

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾{7}محمد

وقوله تعالى:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾{160} آل عمران

وتظل الرسالات الإسلامية (التوحيدية) السماوية, هي شرائع ومناهج حياة وكلها على ملة أبينا إبراهيم وهو الذي سمانا المسلمين من قبل, فالتوراة الكريم هي شريعة الله ومنهاج حياة على ملة أبيهم إبراهيم هو الذي سماهم المسلمين من قبل, والإنجيل الكريم هي شريعة الله ومنهاج حياة على ملة أبيهم إبراهيم هو الذي سماهم المسلمين من قبل , والقرآن الكريم هو شريعة الله ومنهاج حياة على ملة أبيهم إبراهيم هو الذي سماهم المسلمين من قبل.

والدين يعني دين الله (شرائع الله ومنهاجه) والمتجسدة في رسالات الله جل جلاله التوحيدية السماوية وعلى ملة إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين, وجعل الله لكل مننا شريعة ومنهاجا , وأمرنا أن نستبق إليه بفعل الخيرات, وليس بالإكراه أو الإقصاء لبعضنا البعض أو لتكفير أو قتل بعضنا بعضا والتسفيهات أو غيره من هذه السلوكيات غير الأخلاقية والتي لا تمت بصله إلى رسالات الله التوحيدية السماوية ورسل الله وأنبياءه (صلوات الله عليهم جميعا), وإلى الله مرجعنا جميعا فينبئنا بما كننا نختلف فيه... والاختلاف مشروع وهو منهاج حياة في كيفية استخدام العلم والعقل البشري والفكر الإنساني, والاستباق والتقرُب إلى الله جل جلاله كل على شريعة الله ومنهاجه عز وجل.

لقوله تعالى:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾{48} المائدة

إن إطلاق هذه المصطلحات (المسلمين وغير المسلمين) غير الفقهية وغير الدقيقة قرآنيا جهلا وجُزافا, والتي أدت بالضرورة إلى إننا كفرنا جهلا وجُزافا, كفرنا أمم اليهود والنصارى ظلما وعدوانا, وتأثير ذلك في عدواننا وحربنا على الله وكتبه ورسله!! ما أدى بنا بالنتيجة إلى أن ننحدر إلى هذا الانحدار المزري المأساوي السحيق!! لنحتل بجدارة ورضينا لأنفسنا لنكون في الحضيض وفي وأسفل السافلين بين الأمم, ولم يكن هذا ليتحقق إلا من خلال أديان ملكية أرضية وضعية (سُنية وشيعية), قامت أساسا على التحريف والتزوير والتكفير للآخر (اليهود والنصارى) وإنكار رسالاتهم السماوية وعاثوا (الأعراب – سادة وكفار وملوك قريش –) في الأرض فسادا !!! باسم أديانهم الوضعية الأرضية الملكية والتي فُرضت علينا ومنذ أكثر من 1200 عام, بأدوات القمع والبطش والتنكيل والإذلال والمهانات والملاحقات والسجون والتعذيب, متمثلة بالآتي:

1- العدوان والحرب على الله جل جلاله (بعدم إتباع دستوره وتشريعاته وأوامره ونواهيه) والإشراك به والإقران معه الرسول وإبن عم الرسول وأحفاد الرسول, على الرغم من تحريمها في القرآن الكريم.

2- العدوان والحرب على حدود ما أنزل الله جل جلاله إلى رسولنا ونبينا محمد (عليه السلام) في كتاب الله جل جلاله (القرآن الكريم)!!! باختلاق أديان أرضية وضعية مذهبية بعد موت الرسول بفترة لا تقل عن المائتي عام ظلما وعدوانا.

3- العدوان والحرب على رسول الأمم (الرسول الأمي) وخاتم النبيين سيدنا محمد (عليه السلام) وتجهيله!!! على أساس أنه جاهل للقراءة والكتابة!!! في تحريفات واضحة لتفسيرات القرآن الكريم !! وتحويله بعد موته من رسول الله معني بتبليغ رسالة الله السماوية وهو حي يرزق, إلى إله آخر يشرع مع الله ونطقوه على هواهم بعد موته وانقطاع الوحي عنه بمئات السنين!!! وليشرعوا ومن خلاله وعدوانا عليه وجودهم غير الشرعي بنظام الوراثة والأسر الحاكمة.

4- العدوان والحرب على الرسالات السماوية (التوراة الكريم والإنجيل الكريم) وإقصاؤها واعتبارها ديانات لاغية بعد ظهور (القرآن الكريم)!!! بما لم ينزل الله به من سلطان في القرآن الكريم.

5- العدوان والحرب على أهل الكُتُب السماوية واعتبارهم كُفاراً وأنهم غير مسلمين!!!

6- العدوان والحرب في تحريفهم عمدا لتفسيرات القرآن الكريم.

7- تصديرهم لأديان مذاهبية إلى الأميين (ماتعرف اليوم بالدول الإسلامية).

ذكر الله جل جلاله في القرآن الكريم, ذكر اليهود, كأمة من بني إسرائيل هادوا إلى الله جل جلاله إتباعاً لرسول الله موسى (عليه السلام), ونزلت رسالة الله السماوية (التوراة الكريم) لهذه الأمة تحديدا وبلسان قوم موسى (عليه السلام) ورسالة الله السماوية (التوراة الكريم) هي تقوم على الإسلام (التوحيد – عبادة واستعانة–) استسلاما لله وحده لا شريك له.

ذكر الله جل جلاله الذين قالوا إنا نصارى من بني إسرائيل بعدما انحرفت ملوك أمة اليهود من بني إسرائيل عن مسارها الإيماني, وعاث ملوكهم في الأرض فسادا, ونزلت بعدها رسالة الله السماوية (الإنجيل الكريم) على أمة من بني إسرائيل أتبعت تحديدا رسول الله المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام), وهي تقوم على الإسلام (التوحيد – عبادة واستعانة –) استسلاما لله وحده لا شريك له.

ذكر الله جل جلاله أمة الأعراب والأميين في إشارة تحديدا لأمم غير أمم اليهود والنصارى من بني إسرائيل أتباع موسى وعيسى (عليهما السلام), ممن أتبعوا رسالة الإسلام التي بلغها الرسول محمد (عليه الصلاة السلام) , وجاءت الرسالة السماوية (القرآن الكريم) مُصدقة للتوراة والإنجيل الكريمتين, ومهيمنة على باقي رسالات الله السماوية, من كونها نزلت رحمة للعالمين ولكافة الناس بشيرا ونذيرا, وهي (القرآن الكريم) تقوم على الإسلام (التوحيد – عبادة واستعانة –) استسلاما لله وحده لا شريك له.

الرسالة السماوية الخاتمة (القرآن الكريم) لم تتنزل لأمة محددة بعينها كما أسلفت, والتي تقوم على الإسلام (التوحيد – عبادة واستعانة–) لله وحده لا شريك له, بل نزلت للعالمين من أمم الجن والإنس ولكافة الناس رحمة وبشيراً ونذيراً.

ويبقى السؤال الآن:

الإسلام (التوحيد – عبادة واستعانة –) لله وحده لا شريك له هو دين السموات والأرض طوعا أو كرها, وفضَل الله جل جلاله الإنسان وكرمه على جميع خلقه في السموات والأرض, وفطر الله الإنسان (لرجلا كان أو امرأة) على الإسلام (التوحيد). ووجه التفضيل والتكريم لهذا الإنسان (رجلا وامرأة) هو من خلال قلوب يفقهون ويعقلون بها وأعين يبصرون بها وآذان يسمعون بها, لم يفضل ولم يكرم الله جل جلاله باقي خلقه في السموات والأرض كما فضَل وكرّم هذا الإنسان (رجلا وامرأة). بمعنى آخر إن الله جل جلاله قد أعطى لهذا الإنسان حق الاختيار بأن يؤمن أو يكفر (في حين إنه مفطور على الإسلام), وحدد بوضوح آياته القرآنية بأنه لا إكراه بالدين والمعتقدات ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر في علاقة خاصة بين العبد الإنسان وخالقة الله وحده لا شريك له.

الإيمان والكفر هو يشمل العالمين ولكافة الناس (رجلاً وامرأة), المفطورين أصلا على الإسلام.

يتحدد الإيمان والكفر لهذا الإنسان (رجلاً وامرأة) من خلال ما أنزله الله جل جلاله في رسالاته السماوية من أوامر ونواهي وهو ما يُعرف بالمصطلح القرآني (تقوى الله) بقدر استطاعة هذا الإنسان رجلا كان أم امرأة, ليصل بتقوى الله جل جلاله من خلال إيمانه القلبي خالصا لوجه الله جل جلاله, وأن يعمل صالحا في دنياه من خلال أدوات وأركان وشروط الإيمان كسلوك عقدي بين العبد الإنسان وخالقه والمحددة سلفا في رسالات الله السماوية, والتي تزيد عن أربعين ركن من أركان الإيمان في القرآن الكريم, ليتقي الإنسان, النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين في اليوم الآخر (يوم القيامة).

ويختلط على الناس هذه الأيام مفهوم الإسلام القائم على اجتهادات البشر من واقع ما تعلمناه خطأ منذ نعومة أظفارنا ومن خلال ما خطه البشر بأيديهم حول مصادر بشرية مجهولة لدينا!!! وبين مفهوم الإسلام الفعلي الحقيقي، من واقع كتاب الله جل جلاله ومصدر كل التشريعات والدساتير والأصول والفقه والعلوم (القرآن الكريم).

وبهذا يأتي مفهوم الإسلام القائم على التوحيد لله وحده لا شريك له وألا يُشرك أو يُشهد أو يُقرن مع الله جل جلاله رسولا كان أو نبيا أو ملكا أو صنما أو وليا أو تشريعا لغير الله أو حفيدا أو ولدا.

فالخلاصة هنا جلية واضحة:

وهي أن جميع أهل الكتب السماوية (أهل التوراة والزبور والإنجيل والقرآن) هم أهل أديان سماوية شرعها و سنها الله جل جلاله في الأرض، وهم جميعا كلهم مسلمون... بمن فيهم أمم اليهود والنصارى... دونما إقصاء أو استثناء للآخر... ودونما إكراه في الدين.

أما فيما يخص الإيمان... فأهل الكتب السماوية (أهل التوراة والزبور والإنجيل والقرآن) منهم المؤمن... ومنهم الكافر... بمن فيهم نحن... الأعراب.

ولهذا يُطلق على بني آدم بالتصنيف الفقهي القرآني (المؤمنين وغير المؤمنين) ولا يجوز إطلاق مصطلح (المسلمين وغير المسلمين).

كاتب وباحث إسلامي

لا مخرج إلا بامتلاك مقومات القوة

هذا موضوع ملحّ، لا بد من العودة إليه، في المجال العربي، مراراً وتكراراً، وهو حتمية امتلاك مقومات القوة الشاملة إذا أراد العرب الخروج من مأزقهم الصعب الراهن، ولو بعد حين.

فبإمكان العرب أن يصبحوا يساريين إلى أبعد الحدود، وبإمكانهم أن يصبحوا يمينيين سلفيين إذا خاب أملهم في البدائل الأخرى.

محمد جابر الأنصاري □

وبإمكانهم أن يجأروا بالشكوى الصاخبة المرة من ظلم القوى الظالمة، ومن طوفان "العولمة" التي "تآمرت" بها عليهم! وبإمكانهم أن يشرحوا عدالة قضاياهم بألف لسان ولهم من القضايا العادلة كثير ولكن العدل الذي لا تدعمه القوة في هذا العالم عدل ضائع مضيع ولا قيمة له، وبإمكان نخبهم أن تصرخ في الفضائيات ما شاء لها الصراخ والنواح، ولكنها لن تغير من موازين القوة شيئا، فالظاهرة الصوتية وحدها لا يمكن أن تعادل الظاهرة الفاعلة في أي مجال، وإنما هي مجرد تنفيس خادع. ينام بعده الصارخ هادئاً مطمئناً متوهماً أنه غيّر موازين العالم، لكنه في واقع الأمر لم يمس جناح بعوضة.

جرّب العرب تغيير الأنظمة، فأتت أنظمة جعلتهم يتحسرون على الأنظمة القديمة، بعد ما رأوا هزائم أكبر وذاقوا استبداداً أمرّ، وضاعت الرؤية لأن الأنظمة القديمة ليست هي الحل، وجربوا تغيير الإيديولوجيات من راديكالية إلى معتدلة إلى راديكالية من جديد، فازداد الطين بلة، ذلك أن الراديكالية التي لا تعلم أصحابها إلا الانتحار وقتل الأبرياء عشوائياً هي راديكالية تدمير وخراب، ولم يفارقهم التفكير بالأمنيات، ولم يتأصل لديهم بعد التفكير الموضوعي الذي يقرر ما يراه حقيقة من دون تزويق أو تلميع، وهذا النوع من التفكير هو الشرط الذي لا مهرب منه لأية نهضة حقيقية.

وآخر مثال على ذلك، ما تمنوه بشأن فوز الرئيس الأمريكي الجديد الذي تصوروا فوزه في البداية انتصاراً لقضاياهم هم، وليس للشعب الأمريكي.

وجاءهم الرد بعد يوم واحد من التعيينات الجديدة التي مثلت صدمة لأغلبهم، فالقضايا لا تنتصر إلا بعمل أصحابها أنفسهم، وليس بمنقذ يأتي من مكان ما ليملأها عدلاً، وإن جاء، فهو قادم عبر مؤسسات لها أجندتها.

وسيظلون ينتظرون وينتظرون.. ما لم يأخذوا بأسباب القوة الضرورية.

وأسباب القوة الضرورية ليست سوى "معركة الحضارة" قبل أية معركة أخرى.

وأمامهم شعوب شرقية مثلهم في اليابان والصين والهند بين أبرز الأمثلة.

والدرس البليغ أن كل أمة من هذه الأمم اختارت النهج المناسب لظروفها مع نهج التحديث الذي لا بد منه، ولم تدع أمة منهم أنها بلغت الكمال، فمن يزعم ذلك يبدأ انحداره، لكنهم يحاولون ويحاولون، بعد أن أدركوا شروط التغيير. "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

وإذا كانت التعبئة المعنوية مهمة فلا بد أن يصحبها استعداد مادي.

ولا ينكر أحد أهمية المعنويات الإيمانية، فقائد علماني كنابليون يعترف بها ويرى أن القوة المعنوية بالنسبة للقوة المادية تساوي ثلاثة إلى واحد، غير أنه في لحظات تاريخية معينة تصبح الحاجة أساساً للقوة المادية، ويصبح السؤال: كم دبابة يملكها البابا ويستطيع تحريكها، لا كم طاقة من طاقات الإيمان لديه.

ولدينا في تاريخنا العربي تجربة الرسول الكريم في "غزوة الخندق" عندما أرادت القبائل اجتياح المدينة واجتثاث جذور الدعوة الجديدة منها.

فالنبي الكريم، والوحي يتنزل عليه، والمسلمون الصادقون كلهم إيمان من حوله، لم يهمل الاستعداد المادي للمعركة، واستمع إلى مشورة سلمان الفارسي في حفر "الخندق" حول المدينة استفادة من تجارب الحروب الفارسية.

وفي عصرنا نرى أن جميع الأمم الشرقية لم تر مناصاً من خوض معركة "التحديث" لاكتساب القوة الضرورية اللازمة لهذا العصر والتعويض عما فات.

ويمكن إيجاز "فكر التحديث" في النقاط التالية:

-1 إن "التحديث" مسألة تنظيمية هائلة، لكنه ليس "إيديولوجيا الحداثة"، إنه اكتساب القوة التي تمكن أمة من الأمم في عصرنا الحديث من اللحاق بغيرها اقتصاداً وعلماً وتسلحاً بما يجعلها قادرة على التنافس مع القوى الأخرى من دون تبعية أو استسلام.

-2 إن "وعي التخلف" في هذا المجال مسألة حيوية مصيرية، وهذا التخلف كامن في درجة التحديث التنظيمي ولا يمس الثقافة أو التراث، فالثقافة والتراث لا يخضعان لمقاييس التقدم والتأخر لأنهما ذاتيان، وقد تقرر لدى الباحثين في الفكر منذ عقود أن ثمة فارقاً نوعياً كبيراً بين الثقافتين: الثقافة الأدبية ونحوها والثقافة العلمية، فالأولى ذاتية خالصة، والثانية موضوعية وتقاس بمقاييس التقدم والتخلف، وفي نطاق هذه الثقافة لا بد من تحديث يدفع بالأمة إلى الأمام في منهج تفكيرها قبل كل شيء.

-3 إن التحديث ليس هو التغريب، فالتغريب ثقافة ذاتية خاصة بأهلها في الغرب، أما التحديث فظاهرة عالمية في صميم التطور الحضاري البشري. وإذا كان التحديث قد بدأ في الغرب، فإن ذلك مصادفة مكانية لا أكثر، ففي أقصى الشرق استوعبت اليابان التحديث، وكذلك الصين والهند وغيرهما من أمم آسيا الصاعدة. وقد قامت كل أمة باستيعاب التحديث بطريقتها الخاصة وحسب ظروفها الملائمة لها، وهذه التجارب في التحديث دروس بالغة الأهمية للأمم غير الغربية الساعية للتحديث، وأهم النتائج للتحديث بعد اقتباسه حسب الظروف الخاصة والمناسبة لكل أمة أنه حدث في كل الحالات بمواكبة وحدة قومية للأمم التي أقدمت عليه، فالحضارة الحديثة لا تهضمها إلا معدة واسعة وكيان كبير. وثمة إحصاءات في هذا الصدد مثلاً في عدد السكان اللازمين للتحديث وبالتالي عدد العلماء الذين يمكن تواجدهم من تلك الكثافة السكانية.. إلخ، وتقديرات أخرى في المصادر المختصة بهذه العملية.

-4 إن الغرب، حيث انطلقت تاريخياً عملية التحديث، له أطماعه الاستعمارية التي ظهرت وتظهر، ولكن له وجهه الحضاري الذي ينبغي عدم إغفاله في تقدم الشعوب، فالأمم الحية قاومت "استعمار" الغرب بيد، واقتبست "حضارة" الغرب باليد الأخرى، بل في بعض الأحيان قاومت استعماره بحضارته، وعندما نغض الطرف عن جانبه الحضاري ويستغرقنا طابعه الاستعماري فحسب، فإننا نخسر جانباً مهماً من تطور النوع الإنساني. وإذا كانت الحضارة الغربية في طور الانحطاط والانهيار كما يحلو لنا أن نكرر فإنها لم تكن كذلك عندما نهضت على أساسها أمم الغرب واقتبست من تحديثها أمم الشرق، وما زالت تقدم نموذجاً تاريخياً يمكن تأمله. وإن صح أنها في طور انحطاط، فهو انحطاط أخلاقي وروحي، ولكن هل تعاني انحطاطاً علمياً وتكنولوجياً مثلاً؟

-5 إن كل ظاهرة حضارية لا بد من "اختراقها"، أي التعرف إليها بعمق وبصفة حميمة، سواء كانت في الغرب أو في الشرق، هذا لا يعني تبنيها والخضوع لها، إنه يعني، بهدف تقوية الفكر والخبرة، هضم دروس تلك التجربة للاستفادة منها، إما لتجنب سلبياتها أو لاستيعاب إيجابياتها، ومَنْ لم يعرف "الجاهلية" لم يتفهم الإسلام.

عن / صحيفة «الخليج» الإماراتية

براكين تسييس الدين!

د. أحمد عبد الملك

إن «تسييس» الدين كان من أهم العوائق التي وقفت في طريق الديمقراطية في الوطن العربي! بل إن كلمة ديمقراطية بالذات أصبحت منبوذة في الدوائر الدينية، ويتهم كل من يتلفظ أو يؤمن بها بأنه «علماني» أو حتى «كافر». وقد صادف أن حدثت تحالفات «مصالحية» بين بعض الدول والمتشددين الدينيين، وهذا أخرج بعض دَعاة الدين من ثوبهم «العبادي» للتدخل في أمور الحكم وحياة الناس. بل واللجوء إلى العنف والقسوة في سبيل تطبيق قيم الفكر الأصولي وليس الدين الإسلامي، وهنالك فرق كبير بين الاثنين! وصار أن خاف بعض الأنظمة من «سطوة» الأحزاب الدينية ورموزها –حيث نظمت هذه صفوفها وتغلغلت في المدارس والجامعات– ووصل الأمر ببعضها إلى إصدار فتاوى القتل ناهيك عن الإفتاء بطلاق المسلم من زوجته –استناداً لآرائه– أو إصدار صكوك «الكفر» على البعض، بل والمطالبة بقطع رؤوس الناس دون تهم أو محاكمات.

هذه العشوائية، التي نعتبرها ردود أفعال من جانب بعض المتعصبين الموتورين الذين ضاقت بهم أنظمتهم أو زجّت بهم في السجون ردحاً من الزمن، سببت هجرة عكسية إلى دول الخليج حيث أنسَ هؤلاء رائحة النفط والغاز، ووصلوا إلى الإذاعة والتلفزيون والصحافة، وأصبحت لهم سطوة واضحة في الأوساط الأكاديمية –بحيث يحاربون كل صاحب فكر مستنير أو فكر يخالف فكرهم ويقصُونه من الجامعات بغير حق– وبدأوا في السيطرة على أفكار النشء والشباب وهم عدة المستقبل. ونظراً لاتباع تلك الجماعات أسلوب الشدة والقسوة في إطلاق المسميات والأحكام على من يخالفونها الرأي، نزع بعضهم إلى الانغلاق على الذات وعدم المساهمة أو إبداء الرأي في قضايا المجتمع المصيرية! مع أن الانغلاق لم يعد صالحاً للعصر الحديث، بل ويتعارض مع توجهات الحكومات الناهضة نحو التعامل مع رموز الحياة العصرية –بكل أبعادها الانفتاحية– تعاملاً حضارياً يقبل الآخر، ويتصالح مع الأديان الأخرى ويحاورها، ويقيم لها أماكن العبادة، تماماً كما كان في عهد النبوة (لكم دينكم ولي دين)، إلا أن بعض هذه الجماعات الموتورة حرّمت ذلك، وصارت هنالك «دعوات» قاسية وغير لائقة على أصحاب الديانات السماوية الأخرى، ودون مبرر، وهذا لم يحدث في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الخلفاء! ولقد ظللنا نسمع تلك «الدعوات» في المساجد كل جمعة ردحاً من الزمن، حتى ضاق الحكام بهم ذرعاً؛ وصحا الوعي السياسي وأسكتهم عبر «العين الحمراء».

وبعد هذه الانتكاسة رأى هؤلاء أن يتركوا السياسة –نظراً لواقع الأمر– وأصبحوا يتدخلون في أمور الناس، وتغلغلوا إلى إدارات مناهج التعليم، والمطبوعات والنشر، والإذاعة والتلفزيون، التي تحتاج لإنتاجهم ووعظهم، وللأسف كان كل ذلك يجري بموافقة بعض الأنظمة منذ الأربعينيات، حيث كانت الحاجة ماسة إلى هؤلاء –في دول الخليج– التي كان يندر أن يوجد فيها من يفك الخط. وكانت مصر وسوريا تحفلان بالخطباء والمفسرين والحركات الدينية والسياسية بشكل لافت للنظر، وهكذا تمت هجرة العديد من الإسلامويين إلى منطقة الخليج ليس بلباس الإسلام، بل بفكر جديد يحتاج إلى نقاش! فجاء هذا البعض تحت مسميات عدة، لكن الأهم التوحد ونشر الأفكار التي ما كانت تهم الشعوب! وصار أن استخدموا اللغة «المخملية» ذات الإيماءات الوردية الحنونة –بما يصاحبها من لغة جسد متقنة وانحناءات وابتسامات واستغفارات– حيث أسروا القلوب وفتحت لهم أبواب الفرص تماماً كما فتحت لهم أبواب البنوك، وبدلاً من أن يصبحوا مستشارين دينيين في وزارات الأوقاف أصبح العديد منهم مستشارين اقتصاديين في البنوك! وقد حاذروا من الاقتراب من الحراك الشعبي أو حقوق المواطنين، أو دعم الحركات الوطنية التي كانت تعاني تعامل الاستعمار أو الرؤى الضيقة في التعامل مع العمال المواطنين. بل ولم يتطرقوا في خطبهم ووعظهم على مدى أكثر من خمسين عاماً إلى حقوق المواطنة الصالحة، ونأوا بأنفسهم عن خوض حوار التحديث الذي سارت عليه دول الخليج! بل كانت دعواتهم –ضمن فكر المهادنة المرحلية– الصمت أو التأييد في هذا المصر أو ذاك! كما صمت بعضهم عن بعض الممارسات التي قد تخالف أصول الدين أو العدالة الاجتماعية، ولم نسمع أياً منهم تحدث عن حالات العسف أو الظلم إن طالت بعض أبناء المنطقة؛ سواء في دخولهم السجون بلا تهم أو إقصائهم الوظيفي والاجتماعي من المجتمع!

لسنا ضد أحد! ولكن نقبل حوار الآخر ونريد منه محاورتنا! ولا يجوز أبداً اتخاذ التدين «بعبعاً» يخوفوننا به وهم يحققون أهدافاً دنيوية.

وفي ذات الوقت، نشطت حركتهم لجذب الشباب نحو «الجهاد» في أفغانستان والشيشان –في الوقت الذي يرسلون هم أبناءهم وبناتهم إلى الولايات المتحدة وبريطانيا للدراسة العليا ونيل الشهادات الحقيقية كي يضمنوا لهم وظائف عليا في الخليج! وصار أن فقدت بعض بلدان الخليج فلذات أكبادها في وهم «جهاد» مزعوم، وخسرت مرحلة التنمية هؤلاء، وذهب بعضهم ولم يعد، وملأت الحسرات قلوب أمهاتهم! كل ذلك بسبب قوة الإقناع والتكرار الوعظي الذي مورس عليهم. ونحن نعجب من شاب تزوج حديثاً وفي اليوم التالي ذهب لـ»يخرج» في المسجد تاركاً زوجته الشابة مع حسرات الليل! إننا ندرك أن هذا الكلام سوف «يزعل» كثيرين، لكن هل من الإسلام ترك الزوجة في أيام الزواج الأولى والتفرغ للخروج! ماذا ستكون عليه العلاقة بين هذا الزوج وزوجته الشابة؟! وأين (السكن) والمودة والرحمة التي جعلها الله بين الزوجين؟!

وسكت هؤلاء الإسلامويون عن الفساد الإداري في المناطق التي يعيشون فيها، ولم يفاتحوا ولي الأمر في ذلك، بل إن بعضهم استفاد من ذلك الفساد ومارسه، حيث اقترض الملايين لبناء عمارات منيفة، وتقدم –كما تقدم آخرون بغير حق– لإلغاء الدّين، وحصل الإلغاء نتيجة تقابل المصالح، لأن آخرين عليهم ديون بمئات الملايين، ووقع الأمر على رؤوس الفقراء الذين استدانوا مليوناً أو 500 ألف، ومازالوا يقتطعون من رواتبهم من أجل تسديدها! فهل هذا من أفكار وسلوكيات الإسلام أو المسلمين؟ وهل العمارة أو العمارتان اللتان سوف تدران دخلاً لمئات السنين لأحفاد ذاك الشيخ «المسلم»، أتت عن طريق حلال؟! أم من أموال «بيّضها» قرار إداري غير موفق؟! وكيف يمتلك المسلم عمارة ويأخذ دخل إيجارها وهو لم يدفع فيها ريالاً واحداً؟! سؤال نوجهه إلى الذين يفتون في أمور الدنيا ويحذرون الناس من أكل أموال الناس بالباطل، ويقابلون الحكام بالوجوه السمحة الباسمة، والانحناءات الباطلة، ويضغطون على أيدي الأحكام بالتأييد لمزيد من الفساد الإداري والمالي الذي يستفيدون منه!

لسنا ضد أحد! ولكن نقبل حوار الآخر ونريد من الآخر أن يقبل حوارنا! ولا يجوز أبداً اتخاذ التدين «وثنا» أو «بعبعاً» يخوفوننا به وهم يحققون أهدافاً دنيوية بعيدة عن روح الإسلام، ثم يظهرون في الفضائيات يتحدثون عن قيم الإسلام والحق والفضيلة، ويزدرون الرذيلة والكذب وأكل مال الغير بالباطل! بل لا يجوز أن نسمم أفكار النشء الجديد ببعض «التهويمات» فيذهب ليفجر نفسه بين أهله وذويه.

من الخطأ تفكيك المجتمعات العربية، وهذا التفكيك لن يضر بالأنظمة فحسب، بل سيضر بالبشر؛ وينشر الكراهية بين أفراد المجتمع الواحد الصغير، وقد لا نبحر في الخيال كثيراً إن قلنا: إن تسييس الدين أتى بويلات على الشعوب، وإن ساند بعض الأنظمة ردحاً من الزمن، فتلك المساندة سوف تتحول إلى بركان تحت أقدامها، في وقت لا يفيد فيه الندم.

عن / صحيفة(الاتحاد)الاماراتية